Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربيـة للعلـوم الانسـانيـة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672

https://doi.org/10.32792/utq/jedh/v15i3

تَفْكِيكُ الاسْتِقلالِ فِي اللّسانياتِ الدّوَاعِي وَالمَآلات

أ.م.د.حكيم موحان عواد
جامعة ذي قار/ كلية العلوم الاسلامية
hakem.mohan.islqu@utq.edu.iq

الملخص

تكشف هذه المدونة اللسانية عن الأحياز المعرفية التي زامنت ارتقاء اللسانيات كعلم له أصوله ومقوماته، وتلحظ فاعلية الزمن عليه، وانتقال المجال المعرفي فيه من نمط الترييض والتجربة إلى مواطن الانجاز والفعل، إذ يقود هذه الفاعلية ظواهر من صميم اللغة وخارجها، غير أن طريقة المعالجة تختلف من مورد لآخر؛ بسبب تداخل العلوم ولجوء بعض منها إلى مبدأ الرقمنة، فنتج عن ذلك تفكيك عرى الأسوار التي تحصّنت بها اللسانيات إلى أحياز يقودها المعنى والدلالة والتفسير المبتني أصلا على مناهج الهرمينوطيقيا وتحليل الخطاب فضلا عن عرفنة اللسانيات ورجوعها من المبدأ الخارجي إلى مكامن الذهنيات، فهو بحث يستعرض موارد الضعف التي رافقت التنظيم العلمي للسانيات وأدّت به في التالي أن يكون حبيس الكلام بدل اللغة، والخطاب بدل النسق.

الكلمات المفتاحية : تفكيك، مزاوجة، بينية، تداوليات، نظريات قراءة

Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربيـة للعلـوم الانسـانيـة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672

https://doi.org/10.32792/utq/jedh/v15i3

Deconstructing Autonomy in Linguistics: Motives and Outcomes

Asst. Prof. Dr. Hakim Mouhan Awad
University of Thi-Qar / College of Islamic Sciences

Abstract

This linguistic blog reveals the cognitive spaces that coincided with the rise of linguistics as a science with its own foundations and components. It notes the influence of time on it, and the transition of the cognitive field from a mode of training and experimentation to areas of achievement and action. This activity is driven by phenomena from the core of language and beyond. However, the method of treatment differs from one resource to another due to the overlap of sciences and the resort of some of them to the principle of digitization. This resulted in the dismantling of the walls that fortified linguistics into spaces led by meaning, significance, and interpretation, originally based on the methods of hermeneutics and discourse analysis. This also led to the cognitiveization of linguistics and its return from external principles to the recesses of mentalities. This research examines the sources of weakness that accompanied the scientific organization of linguistics, leading it to be confined to speech instead of language, and to discourse instead of system.

Keywords: deconstruction, pairing, interdisciplinarity, pragmatics, reading theories

أولا: لماذا التفكيك؟ منهج أم واقع علمي؟

يرمز التفكيك في مدونته الأصلية إلى تشظي النسق، واعتبار التقوقع على مبدأ أحادي من صميم التقيّد الفكري؛ لأن ذلك يقود على وفق هذا التسيّد إلى تحجر الدلالة وجعلها حبيسة التاريخ لا تغادر أفقها الذي نمت وترعرعت فيه، إذ يعد التفكيك منهجا علميا في العلوم التي تتعمق فكرتها على ضوء التراكم المعرفي، وليس على وفق العنصر المفاجئ للابتكار، فتتسرب إليه دوافع التفكيك بناء على تعدد الوجهات العلمية الناظرة لأصل الفكرة، واللغة ليست بمنأى عن فلسفة التحولات؛ إذ تمارس اللغة عملية إحلال عنصر (استبدالي) بدل عنصر آخر، وهذا الاستبدال في بعض ذوائبه قد يكون فيه بناء فلسفة جديدة أو فكرة تفارق أصل المبنى الذي صيغت فيه.

لقد حلت اللغة محل العقل، كأداة للمعرفة، وحلت أيضا محله كسجن للمعرفة بعد أن أصبحت حدود معرفتنا بالعالم تقف عند حدود اللغة وتخومها، وبعد أن أصبحت المعرفة خارج أبنيتها و أنساقها مستحيلة [i].

لقد تقاربت الفكرتان (التفكيك وتفكيك الاستقلال)، في أن يكون مبدأ الانتقال من النظام واللغة العالية شيئا مشتركا يعمل على تشابه النظام الفعلي لكليهما، فكما أن التفكيك اخترق عنصر النظام وتكوّر الأفكار ، كذلك رأت النظريات اللسانية الحارسة للنظام صعوبة الصمود في وجه المتغيرات المتنوعة، سياسية واجتماعية بل وفلسفية أيضا، فاختارت أن تنتقل إلى أحياز متقدمة يقودها منهج التفكيك العلمي، فعمدت إلى تفكيك بنية العقل والذهن والمعنى المشكِّل لتلك الأنظمة اللغوية ، والانتقال منه إلى بنى مغايرة لفكرة الصلابة والتشدد، وهو أمر تنبهّت له اللسانيات ، فاختارت أن تكيّف وضعها العلمي والمعرفي، بناء على هذا التحول الذي يغوص في أعماق المسألة اللسانية، بعيدا عن جدل البنية والنظام والنسق. ولعل التفكيك أصدق مثالا على مورد التبدل والتغير، فقد عمدت الفلسفات المنتجة للسانيات بعيدة عن أنظمة الرياضة والنسق إلى الابتعاد عن التنظيم الخاص باللغة باعتبارها جهازا لغويا يسهر على عملية الانتاج الفعلي للنظام اللغوي، فاختارت بوساطة تفكيك تلك العُرى أن يكون للنظام بدائل متنوعة، لا تقتصر على مورد واحد، بل لكل فلسفة بديل خاص عن النظام (اللغوي)، فتارة اختارت الكلام وأخرى اختارت الوظيفة، وبقيت بعض الفلسفات تتنقل بتلك التحولات من مسلك إلى آخر ، شريطة أن لا يعود هذا التسلط إلى مبدأ النظام الأول، إن بناء نظرية هو مشروع تسلطي بعض الشيء، فهناك ميل لاعتبار أن التفسير العام الوحيد الممكن في مجال ما، يجب أن تقدمه لنا أداة نظرية واحدة أو قاعدة واحدة أو مسار واحد – كما يقول تلينرنغر- [ii]

وعليه نقرر: أن التفكيك عُدّ في هذه النماذج منهجا علميا تتغياه الفلسفات اللسانية بغية تحقيق منجز لساني لا يرى في النظام إلا اطلال ادت باللسانيات الى الجمود والتحجر، وعمدت سياسة الإقصاء المفرط – حسب نظرتهم- إلى تغييب عناصر أساسية شكلت فيما بعد صورة الأنظمة والفلسفات اللسانية ربما بصورة مغايرة لما أقرته اللسانيات في بداية نبوغها.

ثانيا: التفكيك والبينية، اقتصاد أم إندماج؟

التفكيك أشبه ما يكون بكرة الثلج المنحدرة من قمة هرم، فهو لا يتوقف عند دالة أو معجم أو فيلولوجيا، بل يكتسح ميادين أنشطتها كل مفاصل البحث اللغوي وفلسفته، وبناء على ذلك يكون ناتج هذا الإقدام غير المحدد أن تلتحق بعض العلوم ببعض وأن تُبَنْيِنَ كثير من العلوم التي لا تشترك بحقل معرفي واحد وتجعلها في بوتقة واحدة، وهو أمر يستدعي من أنصار التفكيك عدم الادماج والتعارض بين هذه العلوم، وإذا كانت اللغة عند مؤسسي اللسانيات قطب الرحى في تسييق العملية اللغوية، فإنها شكلت نسيجا مختلفا اتسم باللانهائية، ولذلك عدت صلة سوسير بأبحاث ما بعد البنيوية صلة وثيقة، فإذا كانت البنيوية تسعى لاكتشاف النسق في حركة البنى داخل النص، فإن ما بعد البنيوية تسعى إلى استبدال النسق المتناغم بالنسق اللانهائي الناتج عن سلسلة الاختلافات [iii]. ونتيجة لهذه الاختلافات في البحث اللغوي ، عدُّ التحول مجالا للامتداد، ومن ثم التوسع غير المحدود، حتى تداخلت أمشاج البحث اللغوي في ميادين بعيدة ربما لا تلتقي مع اللغة إلا بالاستعانة بالرموز المشكلة للتعبير، وبالنتيجة يفارق التفكيك في المنظومة اللسانية مبدأ الاقتصاد والاختصار الذي بنته اللسانيات الأولية باعتبارها خروجا على عناصر التاريخ وتحولات الماضي.

إن عملية الاقتصاد المنشودة في ميدان اللسانيات هي فعل واقعي في حالة الثبات والسكون، وهو أمر مستبعد مع تحولات الأفكار اللسانية تبعا لتغاير الشعوب وأوضاعها، وهو ما أدى بالتالي إلى أن يحل محل البحث في اللغة

كرموز مجردة إنتاجا وتوزيعا ، القراءة والخطاب والوظيفة، كبدائل تبحث في أصالة المادة اللسانية بعيدا عن هيمنة النسق وصيرورته حاكما فعليا على المنظومة اللسانية.

ثالثا: بدائل النظام وتحولاته

تعيش الفلسفات والنظريات العلمية بأنظمة متنوعة ، تعمل على رفدها بسلسلة من التقنيات تشكل نظامها العام، وهي روافد وأسس تنسجم والفكرة العامة أو الفلسفة الخاصة التي شكلتها، ولعل واحدة من تلك الأسس هي من تقوم عليها بقية السلسلة ، فيؤدي الخروج منها إلى خروج النظام إلى أحياز جديدة تفارق عمل المنظومة المؤسسة لتلك الفلسفة أو التقنية، فالنظام البنيوي المتعكز على البنية كوحدة قياس يلم شتات البحث اللغوي، ويخلصه من عوائق النكوص في التاريخانية، التي نظر إليها على أنها سراب لا يحقق ماء في مضمار العلم، فاستعاضت بدلا عن التاريخ النسق أو البنية؛ لتحاكي الجو العلمي الذي كان سائدا وقتئذ. غير أن عملية الاحلال هذه لم تتوقف على عنصر أو مورد، بل تحولت تلك الانتقالات إلى نظام وبنية جديدين، بواسطة جملة من المبادئ والتي أشبه ما تكون بالثنائيات، وهو ما سنكشف عنه على النحو الآتي:

أ. القراءة بديلا عن النسق:

تمتلك النظريات العلمية على اختلاف صنوفها وشخوصها مهيمنات عدّة، تتسلح بها من أجل إقرار متبنياتها لمن يروم الالتحاق بها أو الانتفاع من مخرجاتها، وهو مسعى ولّد بعد تقادم عمر النظرية أن يتحول إلى إكليروس لا يمكن تجاوزه أو الحط من قدره، فغدت تلك الأسس مسلمات بديهية يجب أن تمر بها أي عملية تفتيش عن مكامن الابداع، فالبنيوية القائمة على النسق أو البنية خرجت على مهيمنات التاريخ وسلطويته، لكنها فتحت بابا آخر لمهيمنات أخرى كان الممثل الشرعي لها هو: النظام أو النسق. ومنعت الخروج عنه أو جعله سلطة ثانوية، وقد قيل في فلسفة العلم: إن قيمة كل نظرية ليس في صحتها وشموليتها الشكلية، وإنما في خصوبتها، أي قدرتها من جهة على تضمن أكبر عدد من المعطيات بطريقة متطابقة، وعلى خلق فطرة جديدة في البحث من جهة أخرى [iv].

فالنظام الذي نشدته اللسانيات في أول خروج لها من ربقة الهيمنات، أصبح فيما بعد يضّيق الدائرة البحثية على العلماء من داخل الحقل المعرفي ومن خارجه، وهو ما استدعى تفكيك بنية النظام، والخروج من سلطته ببدائل رسمتها طبيعة التحولات العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ ولاستبدال عملية الهيمنة هذه استعاضت النظريات اللسانية بمبدأ نظريات القراءة، وهو نموذج علمي لا يتقيد برؤية واحدة ولا يخضع لنسق أحادي، فبعد أن كان الاستقلال في اللسانيات يندرج تحت طاولة النسق الأحادي ، وهو استقلال قائم على فكرة الاسقاط، برع تفكيك لذلك الاستقلال قائم على فعل القراءة والذات، فبدل اللغة كنسق مغلق ومكثف بذاته بزغ فجر التواصل والتداول والقراءة بمفهومها الواسع، وكان حرياً بالاستقلال أن يتعايش مع هذه المتناقضات التي تسحبه الى دائرة الميتافيزيقيا بكثير من أدواتها ومناهجها. وهو أمر أدّى بالتالي إلى الجنوح صوب الآراء الشخصية التي تنظر الى العملية اللسانية من خارج أسوارها وأنظمتها وحصونها المعرفية. فنتج بفعل القراءة هذه نظريات للقراءة تتعلق بالاهتمام بالقارئ.

إن دور القارئ لم يبرز إلا مع نظريات "ما بعد الحداثة"، وتطور النظريات الحديثة كالتأويلية، والتداوليات، والنقد الثقافي، والتاريخية الجديدة، ومن ثم برز دور القارئ كعنصر فعال في تناول النص الأدبي، وعملية التحليل والتأويل والإدراك والسرد والقص، ولعل ما يزيد في صعوبة تحديد هذه المدرسة هو إفادة ممارسي هذا النوع من النشاط النقدي من الطروحات الحديثة، سواء اللغوية، أو النفسية، أو مكتشفات النقد النسائي. فغدت البنية أو النسق اللتين شكلتا دعائم الاستقلال في البنيويات طرائق قددا؛ لأنها أتاحت -نظريات القراءة- أن يكون لكل قارئ دور في ممارسة العملية النقدية والتوجيهية، وهو مبرر لإنتاج نماذج من القراء أمثال: القارئ النموذج عند (امبرتو ايكو)، والقارئ الجامع عند (ريفاتير)، والقارئ الخبير عند (فيش)، والقارئ المرتقب عند (وولف)، والقارئ المثالي، و القارئ الخيالي، والضمني عند (آيز)، والقارئ الملتزم، والقارئ المستهدف، والقارئ المسقط، والقارئ التاريخي؛ لذا فالتحول في النظريات حالة علمية سليمة؛ لأن كل ما يقوم به العلم هو صقل نظريات واستبعاد نظريات أخرى أحياناً حالما تبصر النور دلائل جديدة وتحليلات جديدة [v].

تعمد نظريات القراءة إلى إحلال نماذج ومبادىء تبتعد فيها عن مركزية البنية، وتمارس سلطة التفكيك مسبارا عمليا يكون قطب الرحى فيه المتلقي، وهي ممارسة بديلة عن اكليروس البنية، مستعيدة بذلك

البحث اللغوي وفلسفته من مضمار ذهني ميتافيزيقي إلى مضمار خارجي يتأثر بالمعطيات الخارجية، وهو إجراء لا يمكن التنبؤ بفاعليته تجاه استقرار الرؤى اللسانية واستقلالها؛ لأنه في الغالب خاضع لسلطة المزاج أو التحول الفكري، وبالتالي يستدعي التداعي في هذا المسبار حضور أكثر من علم وفن في تحليل المادة اللسانية، وهذا يؤدي بالتالي إلى فقدان البوصلة الاستقلالية للسانيات، وهو أمر كان يسير بنحو القصدية المتعمدة!! وهذه التحولات (من البنية – القراءة)، هي جزء من تحولات لنظام أكبر وفلسفات أعمق، إن تحول اللغة الى أداة، تعني أنه انتقل من مشغل النظام الى مساحة التداول، ومن أفق البنية والنسق إلى مبدأ التحول والتبدل بفعل عامل المتلقي، ومن نسق الدقة والتجريد الى مشغل السياق والاستعمال، فاللغة تكسب قيمتها من قيمة التحولات التي تمارسها. ولعل أول بوادر تفكيك الاستقلال هنا : هو أن اللسانيات استعاضت عن فكرة المرجع الذهنية، واستبدلتها بعنصر القراءة، وتكون بذلك قد فككت البنية ، جاعلة إيّاها بنيات متعددة تبعا لتعدد القارئ؛ لأنها تعتقد أن لا حرية للغة إلا خارج أسوارها، وهذا (الخارج) يعمد هو الآخر إلى تبديد الاستقلال الذي انتجه النظام ومركزيته.

لقد أمست المقاربة اللسانية منهجا إجرائيا يحتل بجدارة الاستحقاق حيّزا رحبا في ثقافة القراءة، وتفسير النصوص وتأويلها، وهو الأمر الذي أدى إلى تعميق المرتكزات المعرفية، وتأسيس المفاهيم، وترقية المنهج، والتعامل مع النصوص من حيث هي أنساق من العلامات الدالة التي يصطنعها المجتمع اللغوي؛ لتعزيز نزعة التواصل بين أفراد المجتمع البشري [vi]. إن هذه التحولات التي يقودها مبدأ الانعتاق من سلطة الاستقلال إلى فضاء رحب – كما يظنه مريدوه- أدت بالتالي إلى استبدال مقوّم الاستقلال وهو البنية ببُنى متعددة تمارس الدور ذاته للبنية لكن من خارج واقع اللغة، فقد تخلت اللسانيات المعاصرة عن الانكفاء على الكينونة اللغوية بمعناها البنيوي الصارم، وبمعناها التوليدي الذهني المجرد.... وتجاوزها إلى أفاق أخرى، حيث تلتقي المعرفة اللغوية مع معارف إنسانية أخرى، وإلى حيث يركز على الكلام وعناصره الأساسية، كـ (غرض المتكلم، وحال المخاطب، أو سياق الحال [vii].إن هذا التحول يعد أخطر أنواع التحول على الاستقلال؛ لأن القيود التي فرضها الاستقلال هناك من دقة ونظام وتجريد بدأت بالانهيار؛ لأن هذه الدعامات تم استبدالها بعناصر أخرى قادتهم اليها فلسفة الاتساع والتأثير بالغير، ذلك أن انتقال اللسانيين من التجربة الواقعية الى سمة التأثير فيها أثبت أن الواقع متغير ومستمر بالتغير بخلاف الوصف الذي يتسم بالثبات النوعي، فوصف الواقع قد يتوقف عند إشباع رغبة الوصف من خلال تقديم زوايا نظر وصفية متنوعة، لكنني لا استطيع إشباع رغبة التغيير في الواقع؛ لأنه مرتبط بالإنسان وجوداً، أما الوصف فهو مرتبط بالتجربة وحياتها مع التقعيد والوصف المحددين، إذ الوصف وظيفة العالم والتأثير وظيفة الناس، فيكونوا بذلك قد نقلوا اللغة بتحديد معانيها من العالم اللساني الى الناس، وأخيراً اشترك الناس بتأسيس اللغة ومفاهيمها، فركزوا على نظريات القراءة وتعددها، وهي فكرة أتاحت للكل الوصف والتأثير، وكانت هذه القراءات نتائجها حتمية، إذ أوصلت اللسانيات الى اللادقة واللافاعلية؛ لأنهم حاولوا الانتقال من الدقة الى الاستيعاب والتأويل ومن ثم القراءة، فلا تفوز الحقيقة ولا الفكرة الأصل مع تعدد تلك القراءات، بل يكون للأكثر شعبوية والأكثر انجذاباً حظوة كبيرة في مقام التواصل.

ب. الخطاب بديلا عن اللغة، السلطة، النص.

إن النسقية السوسيرية بالفعل أدت الى ضبط النظام، لكنها تحولت الى نقمة عندما آل الأمر فيها الى الحروب والصدامات، وذلك بفعل صرامة البنية وسلطتها، فتحولت المجتمعات الى كتل قومية، وأخرى إثنية، وهذا من هوادم الاستقلال؛ لأن القومية تستتبع فكرة الأفضلية وصولاً الى القداسة المذمومة في فلسفة العلم. ولو تم النظر الى الأفراد كشخوص مستقلين بعيداً عن نسق البنية المجتمعية لا تحصل عملية الإزالة والإزاحة، وبذلك تغيب فكرة الأفضلية عندما يلتمس الإنسان فكرة الإنسانية والشعور بالآخر. وقد استعاضت فلسفات العلم على اختلاف صنوفها ببدائل عن اللغة كرموز مجردة غير متناهية على مستوى التشكيل، فكان الاختيار قد وقع على عنصر يكون أكثر امتدادا، وأوسع مدًى؛ ليحوي خصائص الكلام بكافة متعلقاته: النفسية والاجتماعية وغيرها الكثير.

فاللغة والخطاب مصطلحات ترتبط فيما بينها من جهة الخصوص والعموم، غير أن كلا منهما يحمل دلالات مختلفة. فقد اعتبر بعضهم الخطاب بمثابة استخدام فعلي للغة؛ لأنّه يعبر عن أفكار ومشاعر وتجارب من خلال تشكيلات لغوية معينة. كما أنّه يشير إلى التطبيق العملي للغة في سياقات مختلفة، سواء كانت مستندة إلى ثقافة معينة أو نوع محدد من التفاعل الاجتماعي. يمكن أن يكون الخطاب سياسياً، أو أدبياً، أو علمياً، أو حتى شخصياً. في حين أن اللغة هي النظام الرمزي الذي نقوم من خلاله بإنشاء معاني المفردات والتواصل. بينما اللغة هي الأساس الذي يتم بناء الخطاب عليه. هي مجموعة من القواعد والألفاظ التي تستخدم للتعبير عن الأفكار. بينما الخطاب هو كيفية استخدام هذه الألفاظ والقواعد في سياقات معينة، وغالباً ما يتعدى ذلك ليشمل الأسلوب والنبرة والسياق الثقافي. لذا، يمكن القول بأن الخطاب ليس بديلاً عن اللغة، بل هو استخدام وتطبيق لها. الخطاب يعتمد على وجود اللغة، ولكنه يمكن أن ينقل معاني وتجارب قد تكون غير موجودة بمعزل عن السياق الذي يتم فيه هذا الاستخدام. غير أن دائرة الافتراق بينهما كامنة في مبدأ التوسع والشمول، إذ تؤدي اللغة وظائف محددة استنادا إلى الرموز التي تستخدمها، وليس بمقدورها الخروج عن رمزية هذه الأشكال إلا بتشكيل الدلالة، وهو الأمر الذي يباين فيه الخطاب اللغة، فجنح لسانيو المعنى والدلالة إلى التفتيش عن موارد يتخلصون فيها من عرى النسق الرمزي للغة فكان الخطاب ضالتهم في تبديد أواصر الاستقلال، فغدا الأخير عبارة عن شظايا تحفظ كينونة اللسانيات من أن تتماهى في سياسة العلوم الأخرى. فالرمز اللساني: رمز توسيطي، إنّه ينظم الفكر ويتحقق في شكل مخصوص، وهو يجعل التجربة الباطنية لذات ما منفتحة على ذات أخرى، في تعبير متمفصل وممثل، وليس عبر إشارة مثل صيغة معدلة، إنه يتحقق في لسان محدد، خاص بمجتمع متميز عن غيره، وليس في بثّ صوتي يشترك فيه الجنس كله [viii].

عرّف ميشيل فوكو الخطاب بأنه: (مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لانهاية يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ ، بل هو عبارة عن عدد محصور من العبارات التي نستطيع تحديد شروط وجودها) [ix]

، إن الاختلاف بين رؤية سوسير وفوكو بخصوص اللغة ونظامها ومنهجها: أن سوسير رأى في نظام اللغة أنها منظومة مغلقة، وأن منهجها يقتضي أن تقوم بوصف اللغة فحسب. بينما فوكو يجاهر بأن التجدد والتبديل والتحول هو سمة بارزة للنظام اللغوي المنطوق منه بالدرجة الأساس. إذ تعكس المآلات التي وصلت إليها ملكة اللغة بعدّها اللبنة الأولى لنشوء اللسانيات حالة التشظي والانشطار ، فقد تقلبت تلك الملكة من اللغة إلى الكلام ، ومن الكلام إلى اللغة ، ومن اللغة إلى العضو، ومن ثم هجرت تلك الملكة العضو لتحل محلها مآلات المتلقي ومزاجه الذي عكسته نظريات تحليل الخطاب بصورة جلية. وهو أمر يؤدي في نهاية المطاف إلى أن تفقد بعض نماذج اللسانيات إبستيمولوجيا خاصة بها؛ لأن الابستيميات تخضع لنمط العلم الذي يصل إليه مورد من موارد العلوم وفلسفتها، فليس من وكد اللساني – في نظرهم- أن يحقق علمية اللسانيات واستقلالها؛ لأنه رأى أن ذلك الأمر قد حصل وتبع هذا الحصول هيمنة فلسفات لسانية وتحجرها في موردها المخصص.

إن ما يميز هذا التحول ومن ثم تفكيك عرى النسق فيه، أنّه لم ينظر إلى اللغة كتصور ذهني تتجاذبه التصورات اللسانية النظرية أو المقولات الفلسفية والمنطقية التجريدية... بل أضحت اليوم شديدة الصلة بالممارسة والاستعمال؛ لتكون أكثر أدائية في توسعة دائرة التواصل والتفاعل بين المتخاطبين عن طريق توليفة من الاستراتيجيات البلاغية والأساليب الحجاجية، فيما يشبه سلّميات وأوّليات تسنّ التواصل، وتنتج الأفكار وترفع الستار عن قراءات ثرية دلاليا؛ سعيا منها إلى كشف المعنى وآليات اشتغاله ومقاربات تأويله.. [x]

ونتيجة هذا التوسع أن التفكيك في اللسانيات النظامية قد تسرب إلى اللون والصورة بل كل أشكال الميديا والإشهار ؛ لأنّه رأى في هذا التحول المرونة في الاستعمال مما يعزز دور اللغة في الانفتاح على مضامير وميادين أبعدتها عنها صرامة البنية ونسق التصور، فكان الانعتاق من السمة المنغلقة إلى المنفتحة الموسعة، ومن مضمار التصورات الذهنية إلى الأداءات الفعلية التي يكون استثمار الألفاظ فيها

بناء على التواصل وفعل الكلام وتحليل الخطاب، وهو توسع لم تستطع اللسانيات فيما بعد أن توقف عجلة التفكيك فيه!!

وهو ما أدى بالتالي إلى تغير النموذج العلمي والمعرفي (البرادايغم)، لتبتعد فلسفة اللغة وألسنيتها عن هيمنة الأنا اللغوية إلى (أنا) الذات المتشظية في حقل التحليلات والتشاركات؛ ولتعلن عن نفسها وسط ازدحام تأويلات الدلالة والمعنى، كي ترسم لنفسها رؤية وجودية مستعملة لمفردات الذات والتواصل والأحاسيس، فضلا عن الصدق والكذب فيها..

إن هذا التوسع في استعمال موارد مستبعدة أدى إلى توسع الدائرة التأويلية لتحليل الخطابات، وهو ما يشي بضرورة التركيز على البعد الذاتي للشخوص التي تتناول عملية التحليل الخطابي، فاجتمعت في إثر ذلك العلوم على مائدة واحدة كلها في خدمة الاستمرار في دحرجة كرة التوسع اللساني والتفكيك النظامي لأنساق البنية والدلالة.

إن المديات التي وصلت اليها بعض النظريات اللسانية متولدة من سمة الاتساع في العلم، إذ تتجاوز هذه النظريات أفق مساحة صيرورتها لتبدأ بعملية ربط برنامجها اللساني ليعانق الخطاب اللساني العالمي، وبذلك تنتفي جدلية الاستقلال لا يدوم بالاتساع، مستندة بذلك إلى فكرة (النظام)، وهي مورد ربما يبدأ بالتشظي كنيجة حتمية لاتساع موارد البحث والتفتيش، فيبدأ الاستقلال بالتفكك رغم صيرورته في حقل العلم، وتبدأ معه طريقة الفاعلية في خلق نموذج علمي بالتماهي؛ لأن العلوم تتجرد من ميتافيزيقيتها إن هي استطاعت أن تجمع شتات أوصالها المعرفية في حظيرة واحدة، وليس توزيع مكونات علومها على أشتات متنوعة بل ومتناقضة، فتبرز اللسانيات هنا ليست بهويتها الخاصة التي اكتسبها بفعل جدليات الانتساب والتشذيب، بل بفعل انشطار المعرفة والنموذج الذي يسير بسرعة غير متوقفة إلى تحقيق التفكيك. غير أن هذا التفكيك أكسبه انتقالا خاصا بين المعارف التي أُقصِيَ عنها مسبقا؛ فالمعارف المتراكمة التي تواردت عليه عملت على ديمومته وتكييفه لكل الأحوال والظروف والمناهج، مُكسِبة إياه منعة بنيوية غير متصلّدة رغم نشأته وسط هذه البينيّات من العلوم، فبدل التفكيك الأحادي القائم على فكرة الإسقاط، بزغ تفكيك قائم على فعل القراءة والذات، فبدّل اللغة كنسق مغلق ومكثف بذاته، إلى فكرة التواصل والتداول والقراءة بمفهومها الواسع، وكان حرياً بالاستقلال أن يتعايش مع هذه المتناقضات التي تسحبه الى دائرة الميتافيزيقيا بكثير من أدواتها ومناهجها. وهو مسلك أدى بالتالي إلى بروز هيمنات وسلطات جعلت من الاستقلال هامشا بعد أن كان مركزا؛ لأن طبيعة العلوم التي وصل إليها الاستقلال تقتضي التنوع، وهذا التنوع المفضي إلى الوقوف على صلابة النظريات مرجعة التعدد المعرفي لأوصال أية نظرية قائمة على فكرة التنقلات عبر الزمن المعبأ بالأيديولوجيا، فالتحول في التفكيك اللساني هنا قائم على تحول اللغة الى (أداة)، فأداة تعني أنه انتقل من فكرة النظام الى مساحة التداول، ومن نسق الدقة والتجريد الى مضمار السياق والاستعمال، فاللغة تكسب قيمتها من قيمة التحولات التي تمارسها. وذلك لاقتناعها الكامل بالتخلّي عن الأيديولوجيا، فالعلوم إذا لم يحدث فيها تحوّلاً وعصفاً فكريّاً تصاب بالجمود والتحجر، فالتحوّل فيها هو انتصار لمنظومة قديمة على فكرة وتحول جديد. مفاده : أن هوية العلم المراد بيان أصوله ومرجعياته تتعدد هوياته بتعدد الموارد التي يتماهى معها، أو التي يستعين بها، فالتفكيك – هاهنا- ليس عبثا . بل إجراء فعلي وحتمية علمية لكل علم يحاول أن يحاقل هويته مع أمشاج علوم أخرى..

فقد رأت اللسانيات أن مبادئ الحوار لا تتوقف عند حدود الضوابط اللغوية، بل تتعداها لتشمل المعطيات غير اللغوية، تجعل المتكلم يتحكم في لغته، واختيار ما يتلاءم مع السياق ، ويحتكم إلى المتلقي في فهم مقاصد المتكلمين، والهدف الرئيس لهذه القواعد هو تمكين المتكلم من صياغة كلامه [xi]

فالتداوليات مثلا وُصفِت بأنها سلة من المهملات وهذا الوصف يحول البحث فيها الى بحث غير لساني، غير أن نظرية القراءة والواقع تحقق فيها مقاربتها للعلوم، من خلال الانتقال من التجريبية الى الواقعية، او الانتقال من الموضوعية الى الموضوعية النسبية، وهي مرحلة شبيهة بمرحلة الفيزياء، ففيزياء نيوتن مختلفة عن فيزياء الكوانتم، وهذا الانتقال ليس خروجاً عن الفيزياء الأولي بل هو تطوراً، ذلك أن الباحث له دور كبير وواضح في التجربة، ولعل أهم شرط حققه هذا التحول هو شرط العبور من المجتمع الى الفرد، ففكك التحول هذا مبادئ الانقطاع ومد الجسور بين العلوم، وعليه عبر بمفهوم الاستقلال من اللغة نظام مجتمعي الى اللغة وفق التصور الفردي، فاتسم الاستقلال فيها بالاستيعابية والتوسيعية، غير أن

الوعي مع التداوليات يوصلنا الى الاختلاف بسبب فعل التحليل والتأويل، فالاستقلال مع التداولية اشتغل على مفهوم اللغة كواقع تجريبي، وهو ما قام به الإنجليز؛ لأنهم تجريبيون كما هو الحال في فلسفة أكسفورد، وهو تحويل اللغة الى فعل إنجازي، أي تحويل التجربة اللغوية الى قيمة إنجازية مثلها مثل التجربة، وهذا البعد هو الذي حول التداولية من الميتافيزيقيا الى العلم، لكن على أي أساس تحولت اللغة الى تجربة؟، تحولت على أساس أنها أصوات، والأصوات فيزياء، فاللغة عبارة عن مدركات وبذلك تكون خاضعة للعلم، والاستقلال يتقوض بالميتافيزيقيا عندما كانت تهتم بمسائل السحر والطقوس والروحانيات وغيرها، لكن عند اشتغالها في مساحة الفيزياء فإنها تُجتلب الى حظيرة العلم، ومادام قد دخلت في مساحة العلم هذه بدأ مفهوم الاستقلال بالدخول الى حيز الميتافيزيقيا العلمية.

في التداولية لم يعد هنالك فقط رسالة ولا باث، فضلاً عن الباث الذي يتوجه برسالة ذات وجهة واحدة الى المتقبل، بل ثمة متلفظون شركاء ينشؤون معاً تفاعلاً لغوياً، أي هم يعيثون نشاطاً ينتزع الى الفعل في الواقع ويفعل خاصة فيهم بشكل متبادل، فالتواصل طقس اجتماعي يتأسس على مواضعات التعاون [xii].

إن أكثر مورد أخرج التداولية من حظيرة العلم هو المعنى المتحصل في (القصد)، فالقصدية بؤرة حاكمة على مجمل العملية التخاطبية التي يمارسها المتكلم والمتلقي، فهي من تقوم بإعداد طبيعة التحاور ونمذجته، إذ تعتمد في حيثياتها على الإضمار الذي بدوره يعتمد على كفاءة المتلقي وطريقة فهمه للخطاب بمجمله، فأنتجت لنا لسانيات فهم وتلفظ أكثر من انتاجيتها للسانيات نظام وبنية أو نسق، فالعبرة لديها تقوم على أساس النفع المتحصل من ديمومة زخم التواصل فيما بين الناطقين بنفس اللغة المشتركة.

إن صنيعا كهذا يُرمي بظلاله على تفكك عرى النظام؛ لأن النظام في هذه المرحلة يكون رهين مزاج وايديولوجيا المتحدث، وبين المنشئ والمنتفع الفاهم تضيع بوصلة النسق وقوته؛ لأن المعنى هو من يقود عملية التفكيك لمنظومة الترييض التي مارستها البنية وأنساقها، إذ يحضر المعنى ك (موازٍ)، لدراسة اللغة، فاللغة بعد فكرة النظام تشكّلت بأبعادٍ وقشورٍ وظلال، توازي أصل الفكرة، حتى غدت هذه الأبعاد مدار البحث فيما بعد ؛ لأن المعنى على اختلاف صوره وتماهيه شكّل قطب الرحى، بيد أنّه أضاع بوصلة من يمكنه امتلاكه، فكل مذهب وايديولوجيا تدّعي أنها الأب الشرعي لهذا المعنى!!.

فالتداوليات هي التي تقتضي أن اللغة جهد فردي، وأن فهم المقولات يتورد بتعدد القراءات، وعليه تكون الحقائق نسبية فيها. فالذات والمتكلم والواقع الاجتماعي والبايلوجيا كلها تفرض وجودها في تشظي الاستقلال؛ لأنها تمده بشحنات يستطيع من خلالها الصمود بوجه التغيرات، فالوصف والتفسير والفهم والتحليل ومحاكاة الواقع ومعرفته كلها هوادم للاستقلال يستقي منها قوته وديمومته، فالتحول من الدقة والنظام والتجريد الى مساحة الفهم والمعرفة يفرض واقعاً علمياً مغايراً عن التحول الى التأثيرات في الواقع؛ لأن لكل واحد منهما استقلاله الخاص، وهذا ديدن التحولات اللسانية بعد الثورة الوصفية والبنيوية التي تحول فيها المنهج الوصفي الى منهج تصنيفي، حيث الاهتمام بدراسة السياقات اللغوية التي يقع فيها كل عنصر لغوي، ثم بحث تأثير هذه السياقات على هذا العنصر، ثم وضع هذه العناصر في قوائم وتصنيفات وأقسام [xiii] ، ثم تحول هذه السياقات والتصنيفات والأرشفة الى عملية التأثير في الواقع بل وخلقه أيضاً، وهذا ما ولد أنماطاً من اللسانيات ومناهج فرضتها طبيعة تلك التحولات. فالتداولية تريد أن تفهم الواقع بأجمعه، فاتسمت بالتوسع والشمول، ومن أجل السيطرة على العينة أبقوا مسألة التأثير، لكن كيف يتم التأثير في الواقع؟

من المعلوم أن الفلسفة وظيفتها ليست للوصف بل للتغير، فالفلسفة تغيّر العالم ولا تصفه، وهذا ما نلحظه عند فلاسفة التداول والقصدية، فأوستن مثلا حاول طرح هذه الفكرة في كيف ننجز الأشياء بالكلمات، وفتجنشتين في كيفية خلق المعنى واستعماله، وكذلك سيرل فهو يختلف عن فتجنشتين الذي وعى اللغة بالاستعمال، بينما هو وعاها بالقصدية. لقد ألحق سيرل النسق اللغوي بخاصيته القصدية، التي هي سمة العقل التي توجهه، فالنسق اللغوي غير مستقل عنده؛ لأنه مؤسسة تابعة للقصدية.

إن هذا النمط من التفكيكيات تقوم به التداوليات والتحليلية والفتجنشتينية؛ لأن من قنّن نظرياتهم هم فلاسفة وليس لسانيون..

بينما نجد لسانيات تشومسكي، وإن كان التفسير هو عماد نظرته ليبقيها داخل أرومة النظام، غير أنها عمدت إلى تفكيك البنية وخلق معادل موضوعي لها من أمثال: (المتحدث المثالي/ المخاطب المثالي/

المجتمع المثالي)، في هذه التنويعة الأساسية تستعيض لسانيات تشومسكي عن البنية ببنى تشاركية أشبه ما تكون بعناصر الخطاب، لكنه خطاب مثالي يفسر الظاهرة ويخرجها من محجرها باتجاه الأداء، وهذا الأداء افترضه تشومسكي ليخلق للغات مساحة يستطيع من خلالها اكتشاف البنى الخاصة بها. لقد استفادت نظريات القراءة من الحكومات والسياسات في ترويج بضاعتها، وهو ترويج أضعف الاستقلال بل وشوهه وأدى به الى التفكيك فيما بعد، فقد أدرك الإعلام أن الوظيفة الآن هي وظيفة تسويق وترويج، من خلال خلق أكبر عدد من المتأثرين بنص ما، فالمفكر يضمن دقة كلامه، أما الناس فتتبع أشهر الأفكار لا أدقها، وهو تحول من العمق والدقة الى التسطيح، فالوعي هنا هو وعي مسطح، وفكرة تعدد القراءات من زاوية أخرى هي بُعد وهمي، إذ الممارسة لأتباع القراءة وليس لتعددها، فلا يكاد الدارس يظفر بوجهة نظر واحدة تجمع بين تلك الآراء؛ لأنها لا تستقي من معين معرفي واحد، ولا تنطلق من أطر مرجعية مشتركة (xiv).

وزبدة المخضّ: إن تفكيك رباط الاستقلال يتحدد بمدى فاعلية اللغة ومرونتها بالانتقال من محور القوة والصلابة إلى محاور تتسم بالمرونة والاستقطاب، محاور لا تجد بأسا في تدخل علوم وفنون في تشكيل صيرورة اللغة وطريقة عملها، فالأداء كفعل اجتماعي يشكّل أغلب النظريات اللسانية الفاعلة في الوقت الراهن، وهذا الأداء ينضوي تحت مظلته كل الاختبارات اللسانية التي يمكن أن تخضع لها أية نظرية لسانية؛ لأن من يقوم بهذا الأداء يمتلك أجزاء متنوعة من كيمياء اللغة، فالفهم والقصد وبؤرة الحدث والاستعمال والمعنى وو وغيرها جميعا يشكل الطيف الذي تنتمي إليه اللسانيات باعتبارها مجموعة من المناهج والفرضيات يتحكم بها أولا وآخرا الإنسان على اختلاف مدياته فاعلا كان أم مضمرا خلف ستار القصديات والقراءات المتنوعة.

لقد احتدم الصراع بين العقلانيين وأصحاب نظريات القراءة، فالفكر العقلاني قادر على جمع المعلومات والتحقق منها بمنهجية، إذ يستخدم المنطق والفكر والحساب، ويطور استراتيجيات فكرية في العلاقة بالعالم التجريبي، أما نظريات القراءة فإنها تسعى خلف المعنى الذي يستجيب للتأويل، وهي توسيع للآفاق بل مفتوحة على زوايا متعددة، وهذا الانفتاح في القراءة يجعل من استقلال اللسانيات أمراً سديمياً لا يقف معه الباحث اللساني على قرار، وهو تحوّل ينذر بكارثة الوصول الى تفكيك الاستقلال واندراسه، فاللسان يعطي عقلاً اجتماعياً يفكر في داخل إطاره، أما الآن اختلفت الفكرة، فالسلطة تحكم المعنى وقضايا الدال والمدلول يحددها طبيعة المجتمعات، في حين مع القراءة، فمن يملك المعنى هو مَنْ يؤسس للقراءة (دولة، حزب، دين، قومية، أعلام)، وفي ضوء ذلك بدأت القراءة تحدد المعاني الكبرى ويحددها في ذهن الإنسان. فالسلطة وما تملك من أعلام تحوّل اللسان الى القراءة، وهذا التحول هو تحول جبري مفروض من الخارج وليس الواقع المعاش، وعليه لا نملك أية قراءة حرة، ومن ثم لا استقلال حر، فكل القراءات نابعة من سلطة محددة تملك قوة الإعلام والترويج.

لقد تبين أن نظرية القراءة كانت بدايتها (كلام)، ثم تحولت الى (لسان)، وبتحولها هذا انتقلت من فردية الى جماعية، فيؤسسها فرد ويعممها على الجميع، فالاستقلال يرتبط بمفهوم الذات، فهي التي توجهه وتصوغ قوانينه، فاتّسع تبعاً لذلك مفهوم الاستقلال، وهذا الاتساع أوصله الى التفكيك لا سيما مع فلسفات هيدغر وبول ريكور وجاك دريدا وأصحاب الفلسفة العقلية والظاهراتية..

خاتمة البحث:

- عمدت القراءة في اللسانيات على توسيع دائرة الارتكاز فيها، وهو أمر قادته تلك النظريات بوتيرة متصاعدة مما أضعف درجة الاستقلال فيها وبالتالي جنحت صوب التفكيك كنتيجة حتمية لهذا التوسع والانشطار.
- اعتمد التفكيك فلسفة التحولات في تقرير مصير اللسانيات فيه، فالفلسفات التي زامنت النظريات اللسانية رفدت تلك النظريات بمقومات التجول، عادّة ذلك التحوّل نمط تفكير يقوّي أسس النظريات الواقع فيها، وهذا الواقع كان مع اللسانيات البوابة الرئيسة لتفكيك مواثيق الاستقلال فيها.

من موارد التفكيك في منظومة اللسانيات أنها لا تقتصر على بنية أو نسق، بل تجعل الأمر موزعا بين البؤر اللسانية المختلفة، فلا سلطة تعلو سلطة الواقع المكون من اللغة والثقافة وا

(i) ينظر: ألوان النسبية: 114

(ii) ينظر: اطلالات على النظريات اللسانية والدلالية: 1/ 352

(iii) ينظر: الأسس الفلسفية لنقد مابعد البنيوية: 120

(iv) ينظر: نحو الخطاب الوظيفي، تطور النمذجة، بحث ضمن كتاب اللسانيات الوظيفية: 407.

(v) ينظر: دليل راوتليدج العلم السيمياء واللغويات: 219.

(vi) ينظر: المرتكزات اللسانية النصية: (بحث)، من الحاسبة

(vii) ينظر: التداوليات علم استعمال اللغة: 26

(viii) ينظر: اللغة، محمد سبيلا وبنعبد العالي: 42

(ix) حفريات المعرفة: 111

(x) ينظر: حفريات الخطاب مقالات في منطق المعنى وحدث القراءة: مجموعة مؤلفين/ إشراف : محمد بكّاي/ دار الرافدين – بيروت لبنان/ ط1– 2021: ص 11

(xi) ينظر: التداولية اليوم، علم جديد للتواصل: 40

(xii) ينظر: التداولية من أوستن الى غوفمان: 86.

(xiii) ينظر: انفتاح النسق اللساني: 96

(xiv) ينظر: القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة: 28.

- **المصادر:**

1. ألوان من النسبية: عادل مصطفى، دار رؤية للنشر والتوزيع، مصر / ط 1 – 2023
2. إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين، مختارات معربة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ، ط1/ 2012م.
3. الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، د. محمد سالم سعد الله، الحوار للتوزيع والنشر، ط1 – 2007م
4. نحو الخطاب الوظيفي، تطور النمذجة، بحث د. بشر بلقاسمي، ضمن كتاب اللسانيات الوظيفية.
5. دَلِيلُ رَاوْتِلِيدْج لِعِلْمِ السِّيمْيَاء وَاللُّغَوِيَّاتِ، بول كوبلي، ترجمة: هبة شندب ، المنظمة العربية للترجمة_ بيروت ط1/ 2016م.
6. المرتكزات اللسانية النصية: بحث في الأسس المعرفية والمنطلقات المنهجية، أ. د أحمد حساني، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي – عدد 50/ 2016
7. التداوليات علم استعمال اللغة. تقديم وتنسيق: حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث – عمان الأردن – ط2 2014م
8. اللغة، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وبنعبد العالي، دار توبقال للنشر والتوزيع، ط4/ 2005م ، الرباط

9. حفريات المعرفة، ميشيل فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، ط2 – 1987م
10. حفريات الخطاب مقالات في منطق المعنى وحدث القراءة: مجموعة مؤلفين/ إشراف : محمد بكّاي/ دار الرافدين – بيروت لبنان/ ط1– 2021
11. التداولية علم جديد في التواصل ، آن روبول ، وجاك موشيلر، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس و د. محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط2003/1م.
12. انْفِتَاحُ النَّسَقِ اللِّسَانِيِّ دراسة في التداخل الاختصاصي، د. محي الدّين محسّب، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بنغازي – ليبيا ، ط1 / 2008م.
13. القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة، أحمد يوسف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1/ 2007م